القول أن هذا الوعد لا ينطوي على أية قيمة حقيقية لو لم تقع فلسطين تحت الهيمنة الاستعمارية.

في ذلك الحين، كان عدد اليهود في فلسطين يناهز الـ ٥٥ ألفاً، كان قسم منهم في فلسطين قبل ظهور الحركة الصهيونية وقسم آخر هاجر إليها بعد ظهور الحركة. ولم يكن بوسع هؤلاء، ولا حتى بوسع الكتائب اليهودية التي خلقتها الحركة الصهيونية بشكل مفتعل خلال الحرب العالمية الأولى وخدمت تحت علم الجيش الاستعماري البريطاني دون أن تدخل معارك تذكر، تغيير معالم فلسطين، أي نفي القائم؛ لأن ذلك لا يتأتى إلا بنفي الوجود اليهودي في أوروبا وأماكن أخرى وغرسه في فلسطين. وبما أن تحقيق المسألة الأخيرة صعب ويحتاج إلى عناء كبير سواء على الصعيد الدعاوي أو على الصعيد العملي، إلى جانب المراهنة على تفاقم أوضاع اليهود نتيجة اشتداد روح العداء ضدهم في أوطانهم الأصلية، فقد رأت الحركة الصهيونية في واقع سقوط فلسطين بيد أكبر دولة استعمارية في ذلك الحين الضمانة الأساسية لتنفيذ الوعد بتحويل فلسطين إلى نقطة استقطاب لجميع اليهود في العالم واستيعاب من يصل إليها، إلى أن يصل التجمع الصهيوني فيها إلى تلك الدرجة التي تمكنه من تحقيق الدولة اليهودية عليها أو على جزء منها في طريق استكمال مشروعها. لذا ارتبط المشروع بضرورة بقاء القوة الاستعمارية في فلسطين وإلى حين، مع اعتبار هذه القوة قوة حليفة، والتمييز بينها وبين بعض الرموز البريطانية التي لا تولي مقولة التماثل المصلحي كبير اهتمام.

وكما نسج هرتسل، على أرضية تماثل المصالح، شبكة من العلاقات مع شخصيات وهيئات مناهضة لليهود في أوروبا، إدراكاً منه للفوائد الجمة العائدة على مشروعه، بذل خلفاؤه من بعده، ضاربين على نغمة «تماثل المصالح»، جهوداً كبيرة للاتصال بحركات فاشية أو حكومات معروفة بعدائها لليهود، وكذلك بأوساط استعمارية تصبو أنظارها نحو الشرق الأوسط لغرس نفوذها فيه. ففي أوائل العشرينات، وعشية استعداد الحزب الفاشي الايطالي للتربع على سدة الحكم، تلقى زعيمه الدوتشي موسوليني مذكرة من قبل جابوتينسكي، بصفته موفداً بمهمة خاصة من طرف الحركة الصهيونية، تعرض عليه خدمات الصهيونية في المشرق العربي، وتحذره من المراهنة على الحركة القومية العربية لكونها تقف بطبيعة الحال ضد مجمل الأطماع التوسعية لمختلف الأوساط الاستعمارية الأوروبية، وتطالبه بدعم المشروع الصهيوني. بيد أن موسوليني لم يول المطلب الصهيوني اهتماماً خاصاً اعتقاداً منه بأن الحركة الصهيونية ما هي إلا أداة بيد الاستعمار البريطاني المنافس له. ومع ذلك، فقد بقي باب الدوتشي مفتوحاً أمام القادة الصهاينة، وجرت لقاءات عدة، في العشرينات، اسفرت، في أواسط الثلاثينات، عن اتفاق سري بين موسوليني ووايزمان، تعهد فيه الأول بدعم المطالب الصهيونية في فلسطين وتقديم تسهيلات للمهاجرين اليهود عن طريق الموانىء الايطالية، مقابل تعهد وايزمان بالنهوض بمساعدة الصناعة الكيمائية الايطالية.

إلى جانب ذلك، نشط التيار التصحيحي في الحركة الصهيونية، بزعامة جابوتينسكي